غزوة أُحُد

أخذت قريش تستعد لغزوة أحد

كانت الفكرة التى تعمل لها قريش منذ غزوة بدر، أن تستجمع كل قوتها، لتضرب الضربة القاصمة التى تقضى بها على محمد وصحبه، وتفرغ بعدها من أمر دعوته ودينه. فأخذت تعد لذلك العدة، وترصد الأموال، وتعبئ القوى، وتجمع السلاح؛ وبعثت رسلها فيمن حولها من قبائل العرب تستنصرهم، وتستعين بهم على تمكين هذه الضربة. وكان من هؤلاء الرسل أبو عزة الشاعر، الذى مَنَّ عليه رسول الله ﷺ فى إسار بدر فأطلقه بلا فداء، وأخذ عليه العهد والميثاق ألا يظاهر عليه أحداً ولا يكثِّر عليه جمعاً؛ فنقض العهد والميثاق، وذهب مع الذاهبين إلى كنانة وتهامة، يحرض على قتال رسول الله ﷺ ويكثِّر عليه.

وهكذا ظلت قريش طوَال عامها تبذل من أموالها، وتجمع من أنصارها، وتعد من قوتها، حتى بلغت من ذلك ما أرادت،

وغدت فى أتم أهبة وأكمل استعداد. فلم يكد يستدير العام حتى خرجت فى جيش لَجِب من رجالها، وممن والاها من رجال تهامة وكنانة، وممن حالفها من الأحابيش من بنى المصطلق وبنى الهُون بن خزيمة، وتوجهت إلى المدينة فى حماسة الموتور وسَوْرة المَغيظ المحَنَق، لتضرب الضربة القاضية. وأبت نساء قريش إلا أن يكن مع الجيش، يحمِّسْنَ الرجال ويُثرن الحميّة؛ فخرج منهن من ربات الخدور نحو أربع عشرة امرأة، على رأسهن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان بن حرب.

أبو عامر الأوسى

وخرج مع الجيش أبو عامر الأوْسى، وهو رجل من رجال الأوس، كان «مقاوماً للنبى ومباعداً له ومنكراً لنبوته؛ وكان قبل ذلك مترهباً يزعم أنه ينتظر النبى المبعوث، ويذكر للناس كثيراً من صفاته، ويقول لهم: إنه قد قرب خروجه. فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، واتضحت صفاته للأنصار واتبعوه، حسده أبو عامر وأنكر نبوته. وكان رئيساً فى الأوس كعبد الله بن أبى فى الخزرج، فكل منهما حسد النبى، صلى الله عليه وسلم؛ لكن عبد الله بن أبى دخل فى الإسلام ظاهراً،

وهذا خرج من الإسلام كافراً مباعداً[1]»؛ وخرج معه خمسون من شيعته من شباب الأوس وغلمانهم، فأقام فى مكة مناصراً لقريش، محرضاً لها على قتال رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما عزمت قريش على الخروج إلى أحد، منّاها أبو عامر أن يخذّل لها قومه الأوس عن رسول الله، وأن يخرجهم من صفوف المسلمين إلى صفوف المشركين إذا التقى الجمعان. وكان فى ذلك معتمداً على ما كان له من سابق المكانة فى قومه، معتقداً أنه بهذه المكانة يستطيع أن يحدث ما يشاء من التفريق فى صفوف المسلمين. وكان يظن أنه يكفى لذلك أن يظهر لهم عند اللقاء، وأن يُسمعهم صوته فيستجيبوا له، حتى لقد كان يقول لقريش فى يقين الواثق المطمئن: «لو قدمتُ على قومى لم يختلف عليكم منهم رجلان؛ وهؤلاء معى نفر من قومى».

خرجت قريش فى ثلاثة آلاف

وفى أوائل شهر شوال من السنة الثانية للهجرة، خرج الجيش الجرار من مكة، يقوده أبو سفيان بن حرب، ويحمل لواءه طلحة بن أبى طلحة، وعلى ميمنته خالد بن الوليد، وعلى ميسرته عِكْرِمة بن أبى جهل، وعلى رَجّالته صفوان بن أمية..

(١) السيرة النبوية لدحلان.

ثلاثة آلاف مقاتل فى أكمل استعداد وأحسن تعبئة، من بينهم مائتان من الفرسان المدربين على ظهور الخيل، وسبعمائة من الدراعين المحصنين بالزُّرد والدروع الواقية، يحملهم عدد وفير من الركائب، ويتبعهم حشد كبير من العبيد والغلمان يقضون حوائجهم ويحرسون متاعهم. وكان مع العبيد عبد حبشى اسمه «وحشى»، وكان يجيد الرماية بالحراب على طريقة الحبشة، فأغراه سيده جُبَير بن مُطعِم بقتل حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال له: «إن أنت قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق»؛ وكذلك أغرته به هند بنت عتبة ووعدته على قتله خيراً كثيراً. وكان حمزة قد قَتَلَ فى وقعة بدر طُعَيْمَة بن عدى عمّ جبير، وعتبة بن ربيعة أبا هند.

خطة قريش

وكانت قريش - فيما يبدو - قد خرجت على خطة موضوعة، هى أن تفاجئ المسلمين فى عُقْر دارهم قبل أن يستعدوا؛ فإذا أخفقت المفاجأة وعلم المسلمون بخروجها فاستعدوا لها، فالخطة إذن هى التخذيل والتفريق بين صفوف المسلمين عند اللقاء؛ فإذا أخفقت كذلك خطة التخذيل والتحم الفريقان، فالخطة هى الفتك برسول الله ﷺ ثم برءوس أصحابه

من المهاجرين، كما فتك المسلمون برءوسهم فى وقعة بدر.

من أجل ذلك كتمت قريش أمرها على المسلمين، وخرجت تواصل السير فى سر حتى نزلت بوادى أحد؛ على نحو خمسة أميال من المدينة. ولولا أن العباس بن عبد المطلب كتب إلى رسول الله ﷺ بمخرج قريش هذا، لأطبق الجيش على المدينة فى غفلة من أهلها؛ فقد ذكر الرواة أن العباس كتب كتاباً إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يخبره بخبر قريش وبما أعدت له من الرجال والعتاد، وبعث بكتابه هذا مع رجل من بنى غِفَار، فواصل السير به حتى بلغ المدينة فى ثلاث ليال. فلما بلغها علم أن رسول الله فى قباء، فانطلق إليه فسلمه الكتاب، فدفعه رسول الله إلى أُبى بن كعب فقرأه عليه، فاستكتمه الخبر. ثم دخل على سعد بن الربيع فأخبره خبر الكتاب، فقال سعد: «والله إنى لأرجو أن يكون فى ذلك خير». وأرجف اليهود والمنافقون بأمر الكتاب فشاع الخبر فى الناس؛ وهذا ما كانت تخشاه قريش.

روى الواقدى عن عبد الله بن عمرو بن أبى حكيمة الأسلمى قال: «لما أصبح أبو سفيان قال: أحلف بالله أنهم جاءوا محمداً فخبَّروه مَسِيرنا، وحذروه وأخبروه بعددنا؛ فهم الآن

يلزمون صَيَاصِيهم[1]، فما إنْ نُصيب منهم شيئاً فى وجهنا. فقال صفوان: إن لم يُصْحِروا لنا[2] عمدنا إلى نخل الأوْس والخزرج فقطعناه، فتركناهم ولا أموال لهم فلا يَجْتَبِرونها أبداً؛ وإن أصحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، ولنا خيل ولا خيل معهم، ونحن نقاتل على وِتْر[3] عندهم ولا وتر لهم عندنا».

الرسول يتبادل الرأى مع أصحابه أين يلقون العدو

وبعث رسول الله ﷺ عيونه يستطلعون له خبر القوم، فجاءوا إليه فأخبروه بمنزلهم من وادى أحد، وحزَروا[4] له أعدادهم وعتادهم. وكان المشركون قد أطلقوا خيولهم وجمالهم فى مزارع المدينة، فجعلت تأكل الزرع والشجر حتى أوشكت أن تدخل المدينة؛ وبات الخطر جاثماً على الأبواب، وغدا الأمر أعجل من أن يقبل التسويف، وصار من الواجب على المسلمين أن يأخذوا حِذْرَهم ويستعدوا؛ وحُرست المدينة كلها طول الليل، فبات وجوه المسلمين من أهلها بالمسجد وعليهم السلاح، خوفاً على النبى، صلى الله عليه وسلم. فلما أصبحوا جمع النبى أهل الرأى من أصحابه، وجعلوا يتشاورون كيف يَلَقوْن عدوهم.

(١) صياصيهم: حصونهم. (٣) وتر: ثأر.

(٢) إن لم يخرجوا إلينا فى فضاء الصحراء. (٤) حزروا: قدروها على وجه التقريب.

روى الواقدى أن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال لأصحابه: «أشيروا علىّ».. فقام عبد الله بن أبىّ فقال: «يا رسول الله، كنا فى الجاهلية نقاتل فيها، ونجعل النساء والذّرارىّ فى هذه الصّياصى، ونجعل معهم الحجارة.. ونشبّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمى المرأة والصبى من فوق الصياصى والآطام، ونقاتل بأسيافنا فى السكك.. يا رسول الله، إن مدينتنا عذراء ما فُضّت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا أصبناه.. فدعهم يا رسول الله، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيراً.. يا رسول الله، أطعنى فى هذا الأمر، واعلم أنى ورثت هذا الرأى من أكابر قومى وأهل الرأى منهم، فهم كانوا أهل الرأى والتجربة».

وكان رأى رسول الله ﷺ مع رأى ابن أبىّ، وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «امكثوا فى المدينة، واجعلوا النساء والذرارى فى الآطام؛ فإن دخلوا علينا قاتلناهم فى الأزقة فنحن أعلم بها منهم، ورمُوا من فوق الصياصى والآطام».

فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً، ورغبوا فى الشهادة وأحبوا لقاء العدو: «اخرج بنا يا رسول الله إلى عدونا».. !

وقال رجال من أهل السن وأهل النية[1]: «إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا. وقد كنت يوم بدر فى ثلاثمائة فظفّرك الله عليهم؛ ونحن اليوم بَشَرٌ كثير، وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا فى ساحتنا».

وقال مالك بن سنان: «يا رسول الله، نحن بين إحدى الحسنيين، إما يظفرنا الله بهم فهذا الذى نريد، والأخرى - يا رسول الله - يرزقنا الله بها الشهادة.. والله - يا رسول الله - ما أبالى أيهما كان.. إن كلا لفيه خير!..»

فقال حمزة بن عبد المطلب: «والذى أنزل عليك الكتاب لا أطْعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارجاً من المدينة».. !

وقال النعمان بن مالك: «يا رسول الله، لِمَ تحرمنا الجنة؟ فوالله الذى لا إله إلا هو لأدخلنّها»! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بم»؟ قال: «إنى امرؤ أحب الله ورسوله، ولا أفر يوم الزحف».. !

---

(١) أهل النية الحسنة والضمائر الخالصة.

وقال إياس بن أوس: «لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها، فتكون هذه جرأة لقريش علينا، وقد وَطِئوا سعَفَنَا، فإذا لم نَذُبَّ عن غرسنا لم يزرع».

وقام خيثمة - أبو سعد بن خيثمة - فقال: «.. لقد أخطأتنى وقعة بدر وقد كنت عليها حريصاً.. لقد بلغ من حرصى أن ساهمت ابنى فى الخروج، فخرج سهمه فرُزِق الشهادة، وقد كنت حريصاً على الشهادة.. وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم فى أحسن صورة، يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها، وهو يقول: الحقْ بنا ترافقنا فى الجنة، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقًّا. وقد - والله يا رسول الله - أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنة! وقد كبرت سنى ورق عظمى، وأحببت لقاء ربى؛ فادع الله - يا رسول الله - أن يرزقنى الشهادة، ومرافقة سعد فى الجنة»..!

الرسول ينزل على رأى أصحابه فى الخروج ثم يصمم عليه

ورأى رسول الله ﷺ أن الخروج هو الرغبة الغالبة. وأن كثرة الناس تدعو إليه، فصلى بهم الجمعة، ثم وعظهم وأمرهم

بالجد والجهاد، وأخبرهم أن لهم النّصر ما صبروا؛ ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم، ولكن كثيراً منهم كرهوا ذلك المخرج، لما رأوا فى وجه رسول الله من الكراهة له. وأخذ الناس يتأهبون للقتال فليبسون دروعهم وسلاحهم، ويتوافدون على مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما كان العصر كان الناس قد تجمعوا واحتشدوا، فصلى بهم صلاة العصر، وأمر أن يُرفعَ النساء والأولاد فى الآطام والحصون؛ ثم دخل بيته ليلبس لأمةَ الحرب[1]، والناس فى خارج البيت يتناقشون ويتجادلون فى أمرهم، ولا يزال فريق منهم يرون أن البقاء هو الأصوب، وأن الناس قد استكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج، فعزم عليه وهو له كاره؛ وجاء سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر فقالا: «قلتم لرسول الله ما قلتم واستكرهتموه على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء. فرُدُّوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه».

فبيناهم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ وقد لبس لأمته.. فقال الذين كانوا يُلحون فى الخروج: يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك. فقال: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغى لنبىّ إذا لبس لأمته

(١) اللأمة: عدة الحرب.

أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم».

خرج الرسول فى ألف مقاتل

وعقد رسول الله ﷺ ألْوِيَةً ثلاثة؛ فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير، ودفع لواء الخزرج إلى الحُباب بن المنذر، ودفع لواء المهاجرين إلى مُصْعَب بن عُمَيْر. ثم دعا بفرسه فركبه، وخرج فى ألف من أصحابه فيهم مائة دارع[1]، والناس عن يمينه وشماله، والسعدان يعدوان أمامه: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ؛ وكان ذلك يوم الجمعة لستّ خَلَوْن من شوال، بعد أن أمّر على المدينة ابن أم مكتوم يصلى بالناس.

ومضى رسول الله ﷺ حتى أتى مكانًا يقال له «الشَّيْخين»، فعسكر به، ثم استعرض الجيش فرد من استصغره من جنوده. وكان فيمن رده رسول الله ﷺ من هؤلاء الصغار، رافع بن خَدِيج وسمرة بن جُنْدب. فقيل لرسول الله: إن رافعًا يحسن الرماية؛ فأجازه. فبكى سمرة بن جندب وقال: أجاز رافعًا وردنى مع أنى أصرعه! فسمع بذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأمرهما أن يتصارعا، فكان الغالب سمرة، فأجازه هو الآخر.

---

(١) الدراع: لابس الدرع.

المخذل عنه ابن أبيّ بثلث الجيش

وبات رسول الله ﷺ ليلته تلك بالشيخين، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة، وعلى حرسه هو ذَكْوَان بن قيس. فلما كان من السَّحَر سار رسول الله بالجيش حتى بلغ «الشَّوْط»، وهو بستان بين المدينة وأحد. وهناك انشق ثلث الجيش على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فرجع عبد الله ابن أبي بثلاثمائة من أصحابه وهو يقول: "أطاع الغلمان وعصانى، فعلام نقتل أنفسنا هاهنا؟» فجعل عبد الله بن عمرو ابن حرام يحاول أن يَثْنيهم عن عزمهم هذا، ويناشدهم الله ألا يشقوا عصا الجماعة، وألا يخذُلوا قومهم ونبيهم فى حضرة العدو؛ فيقولون له متهكمين: "لو نعلم قتالا لاتبعناكم"!

وقد أحدثت هذه الفعلة الشنيعة خلخلة عظيمة فى بناء الجيش، وزلزلة شديدة فى نفوس المسلمين، حتى لقد همت بنو حارثة من الخزرج وبنو سلَمَة من الأوس أن تفعلا كما فعل أصحاب ابن أبي؛ ولكن الله عصمهم بإيمانهم، فعادوا إلى صفوف الجماعة، وساروا مع الجيش كما كانوا يسيرون.

الرسول يعبئ أصحابه ويوصى الرماة ألا يبرحوا مواضعهم

ومضى رسول الله ﷺ حتى وصل إلى أحد «وهو جبل كثير المسالك والشعاب، تقطعه عدة أودية، ويدور دورة واسعة فى مواجهة السهل الضيق الذى وقفت عنده قريش. كما أن تعرجات الأرض جعلت فى انحداره فجوات تشبه الحفر، تصلح للاختفاء فى الحرب الدفاعية لقذف النبال»[1]. فنزل رسول الله ﷺ فى شِعب على عُدْوَة الوادى[2]. إلى جانب تل مشرف يقال له: «جبل عينين»؛ وهناك أخذ يصُفّ أصحابه ويعبئهم للقتال، فجعل ظهورهم إلى الجبل بحيث يحتمون به من خلفهم، وجعل وجوههم إلى المدينة بحيث يستقبلون الوادى ويشرفون عليه من أعلاه؛ وجعل خمسين من الرماة على جبل عينين، وأمّر عليهم عبد الله بن جُبَيْر. وأمرهم أن يحموا ظهور المسلمين عند القتال، وألا يمكنوا العدو من اقتحام هذا الحصن، وألا يبرحوا مكانهم هذا سواء أكان النصر للمسلمين أم عليهم؛ ثم علّمهم أن يَنْضحوا[3] الخيل كلما أقبلت نحوهم بالنَّبل، وأكد الوصية عليهم ألا يغادروا مواضعهم وإن رأوا

(١) محمد القائد. (٢) عدوة الوادى: جانبه. (٣) ينضحوا: يرموا.

أصحابهم تتخطفهم الطير. . فلما انتهى صلى الله عليه وسلم من تعديل الصفوف وإعداد المواضع، خطب فى الناس يحرضهم على القتال ويحثهم على الصبر، وأمرهم ألا يبدءوا بقتال حتى يؤذنهم.

«وبينما كان رسول الله منهمكًا فى صف جنوده، ظهر القرشيون فى السهل المنبسط تحت التل، وصار الجيشان وجهًا لوجه»[1] وظهرت نساء قريش يمشين بين الصفوف، ويضربن بالدفوف، وينشدن الأناشيد، تحريضًا على القتال وإثارة للحمية بين الرجال.

قريش تحاول التخذيل قبل الهجوم

فلما التقى الجمعان بدأ أبو سفيان خطة التخذيل بين الأنصار والمهاجرين، فنادى: "يا معشر الأوس والخزرج، خلُّوا بيننا وبين بنى عمنا وننصرف عنكم"، فذهب نداؤه صرخة فى الفضاء. فأعقبه أبو عامر الراهب فبرز بين الصفوف ينادى قومه الأوس: "يالَلأوس، إلَىّ إلَىّ"! فما كان جواب قومه إلا اللعن والطرد والرجم بالحجارة، حتى ولى وهو خزيان يقول لقريش: "لقد أصاب قومى بعدى شرٌّ". وأخفقت خطة التخذيل كما

(١) بودلى.

أخفقت خطة المفاجأة، فلم يبق من القتال مفر.

"وهنا حاولت قريش أن تطوّق المسلمين وتضم عليهم جناحيها، بحركة التفاف سريعة؛ فتحرك لواء عكرمة من الميسرة، يريد أن يدور حول عسكرهم فلم يستطع؛ فحاول ذلك خالد من الميمنة، فأمطره الرماة وابلا من النبال، فارتدت الخيل على أعقابها مسرعة، فعاد المشركون إلى أماكنهم كما كانوا فى أول المعركة" [1].

المسلمون ينتصرون فى أول جولة

وبدأ القتال بالمبارزة، فخرج من صفوف المشركين رجل يطلب المبارزة، فبرز له الزُّبَيْر بن العوَّام فقتله: فسُر رسول الله ﷺ وكبّر، فكبر المسلمون وشدوا على أعدائهم وهم يتصايحون صيحة الحرب: «أمِتْ.. أمت».. ! فهجم علىّ بن أبى طالب على حامل لوائهم طلحة بن أبى طلحة فقتله؛ فأخذ اللواء أخوه عثمان، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فقتله؛ فأخذ اللواء أخوهما أبو سعيد فرماه سعد بن أبى وقاص بسهم فقتله فتناوب اللواء بعده أربعة من أولاد طلحة، وكلهم يُقتَلون واحدًا بعد واحد؛ فحمل اللواء غلام لهم يقال له: «صُؤَاب»، فقتل

(١) محمد الغائد.

كذلك؛ وسقط اللواء على الأرض، فأُخِذ المشركون بذلك أخذًا شديدًا، وانكسرت شوكتهم وانفرجت صفوفهم؛ فحمل المسلمون عليهم حملة صادقة، وأمعنوا فيهم ضربًا بالسيوف وطعنًا بالرماح ورميًا بالسهام، فانكشفوا وولَّوا الأدبار، وجعلت نساؤهم تصيح وتولول، وأخذن يتسابقن فى الهرب والفرار من الأسر، مشمِّرات عن سيقانهن وخلاخيلهن. وتبع المسلمون أعداءهم يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا، حتى أبعدوهم عن العسكر؛ ثم وقعوا على الغنائم والأسلاب يجمعونها وينتهبونها، وهم مطمئنون إلى أن ظهورهم لا تزال محمية برماتهم.

الرماة يخلون مواقعهم فينقلب النصر إلى هزيمة

أما الرماة فقد خيل لهم أن المعركة قد انتهت وأن الهزيمة قد تمت، وخشوا أن يسبقهم إخوانهم فى جمع الغنائم، فقال بعضهم لبعض: "ما بقاؤنا هنا وقد هزم الله العدو؟ هؤلاء إخوانكم يغنَمون، فادخلوا فاغنَموا مع إخوانكم". فجعل أميرهم عبد الله يذكرهم وصية رسول الله ﷺ، ويحذرهم عاقبة الخلاف والعصيان، ولكنهم لم يستجيبوا له، وتأوَّلوا قول رسول الله، واندفعوا إلى العسكر ينتهبون ويجمعون الغنائم، وتركوا أميرهم فى نفر من أصحابه لا يجاوزن العشرة، فانكشف بذلك الحصن

الذى كان يحمى ظهور المسلمين.

وكان خالد بن الوليد يتقهقر وعينه إلى التل لا تفارقه. فلما رأى الرماة يتركون مواقفهم، انقلب راجعًا فى دورة واسعة، متخذًا من الأراضى المستورة دربًا وطريقًا له؛ وجاء فى أعقابه عكرمة بلوائه، فتسللوا فوق الجبل، وأزاحوا الرماة الباقين من أماكنهم، واقتحموا خطوط المسلمين من الخلف"[1] وجعلوا يتنادون بشعارهم: "يا للعزى، يا لهبل"! فأقبل المشركون بعد إدبارهم. وأخذت عَمْرةُ بنت علقمة الحارثية اللواء فرفعته، فجعلوا يلوثون به. وفوجئ المسلمون بأعدائهم قد حاصروهم وأوجعوا فيهم قتلا ذريعًا؛ فاضطرب أمرهم وانتقضت صفوفهم، وجعلوا يقاومون على غير نظام، ويقاتلون على غير شعار، حتى قتل بعضهم بعضًا وهم لا يشعرون.

صرخة مذهلة هلع لها المسلمون وتضعضعوا

وفى وسط هذه الدهشة البالغة صرخ صارخ فى الناس: "إن محمدًا قد قُتِل"!.. فأُخِذ المسلموم بهذه الصرخة وزلزلوا لها زلزالا شديدًا، ودب فى صفوفهم الفشل، وسرى فى روحهم التخاذل، فتفرقوا طرائق قِدَدا، منهم من أمعن فى الفرار

(١) محمد القائد.

لا يلوى على شيء، ومنهم من ثبت وكل همه أن يدافع عن نفسه أو يقاتل حتى يقتل، ومنهم من أذهلته المفاجأة فألقى بيديه واستسلم للهزيمة، ومنهم من أخذته الحيرة فلم يدر ماذا يفعل.

كل ذلك والرسول ﷺ من ورائهم يدعوهم ويصيح بهم: «إلَيَّ عباد الله..! إلَيَّ عباد الله..! إلَيَّ يا فلان..! إلَيَّ يافلان..! أنا رسول الله..!» وهم مُصْعدون[1] لا يلوون على أحد، ممعنون فى الفرار لا يسمعون دعاء ولا يجيبون نداء، هائمون على وجوههم لشدة ما أصابهم من الدهش والعجلة والخوف. وانتهز الشيطان هذه الفرصة، فجعل يوسوس فى القلوب الواهنة ويستزل النفوس الضعيفة، حتى قال بعض المسلمين: "علام نقاتل إذا كان محمد قد قتل؟ فارجعوا إلى قومكم يؤمِّنوكم"؛ وحتى ظن آخرون أنها النهاية، وأنها الساعة الفاصلة بين الإسلام والكفر، وقالوا كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿لَوْ كانَ لَنا من الأمرِ شيءٌ ما قُتلنا ههُنا﴾[2].

---

(١) مصعدون: ممعنون فى الفرار.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٤.

الرسول يثبت فى وجه العدو ومعه نفر من أصحابه يبايعونه على الموت

أما رسول الله فقد ثبت فى وجه العدو وقاتله قتالاً شديدًا، فظل يرمى بالنبل حتى فنى نبله وانكسرت سِيَةُ قوسه وانقطع وتره، ثم ظل يرمى بالحجارة حتى وقع لِشقِّه[1]. وثبت معه نفر من أصحابه - قيل إنهم دون العشرة، وقيل إنهم فوق العشرة - فبايعوه على الموت، وأحاطوا به يصدون عنه هجمات العدو، الذين أحدقوا به من كل ناحية، وشدوا عليه يريدون أن يقتلوه. . فما زال هؤلاء النفر يذودون عنه، ويقاتلون دونه، ويتلقون عنه ضربات العدو، حتى استطاعوا أن يحولوا بينهم وبينه.

وقد أبلى هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى الدفاع عنه أحسن البلاء، وامتاز فريق منهم فى دفاعه بالصدق والشجاعة، فقد قاتل طلحة بن عبيد الله عنه قتالا شديدًا، وصار يذود بالسيف من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ويدور حوله يُتَرِّس بنفسه دونه، والسيوف تغشاه، والنبل يأتيه من كل ناحية، فلم يَزل جُنَّةً[2] لرسول الله ﷺ حتى

(١) لشقه : لجنبه.
(٢) جنة : وقاية.

انكشف المشركون عنه، فكان أعظم الناس غناء عن رسول الله يومئذ؛ فجعل صلى الله عليه وسلم يقول: «قد أَوْجَب طلحة!» أى: أوجب لنفسه الجنة بصدق دفاعه عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وكان شَمّاس بن عثمان بن الشريد المخزومى لا يرمى رسولُ الله ﷺ ببصره يمينًا ولا شمالا إلا رآه فى ذلك الوجه يذود بسيفه، حتى غُشِي[1] رسولُ الله، فترّس بنفسه دونه[2] حتى قتل رحمه الله، فذلك قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما وجدت لشماس شبهًا إلا الجنّة».

وكان أبو طلحة راميًا شديد الرمى، فنثر كنانته بين يدى رسول الله ﷺ وصار يرمى عنه، وجعل رسولُ الله كلما مر به أحد من أصحابه معه كنانة يقول له: «انثرها لأبى طلحة»، وكلما رمى أبو طلحة سهمًا نظر رسول الله ﷺ من ورائه ليرى موقع السهم، فيقول له أبو طلحة: "يانبى الله، بأبى أنت وأمى! لا تنظرْ يصيبك سهم من سهام القوم.. نحرى دون نحرك، ووجهى لوجهك فداء!"

وترّس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله، صلى الله عليه

---

(١) أحاط به العدو.

(٢) فترس: جعل نفسه ترسًا بينه وبين العدو.

وسلم، فجعل النبل يقع فى ظهره وهو منحنٍ عليه، حتى كثر فيه النبل.

ورمى سعد بن أبى وقاص دون رسول الله ﷺ فجعل رسول الله يناوله النبل وهو يقول: «ارْم فداك أبى وأمى»! حتى إنه ليناوله السهم مالَه نَصْل فيقول له: «ارم به»، فيرمى.

ودافعتْ عن رسول الله ﷺ أم عُمارة، وهى نَسِيبة بنت كعب المازِنية، وكانت تسقى الناس يوم أحد. فلما رأت رسول الله قد أحيط به وانهزم عنه الناس، وضعت سقاءها وأخذت سيفًا. فجعلت تقاتل أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جرحت ثلاثة عشر جُرحًا، وظل على عاتقها من هذه الجراح جُرْح أجوف له غَوْر، أصابها به ابن قَمِئَة. وقد سُمع رسول الله ﷺ يقول يومئذ: «ما التفت يمينًا ولا شمالا إلا أنا أراها تدافع دونى».

وكان الحُباب بن المنذر يحوش المشركين كما تحاش الغنم. واشتملوا عليه حتى قيل: قد قتل، ثم برز والسيف فى يده وقد افترقوا عنه، وجعل يحمل على فرقة منهم وإنهم ليهربون منه.

وقام زياد بن السكَن فى نفر من الأنصار، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلا ثم رجلا، وهم يقتلون دونه، حتى كان

آخرهم زياد، فقاتل حتى أثبتته الجراح، فوَسَّده رسول الله ﷺ قدمه حتى مات.

ومات مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ وهو يتلقى عنه ضربة قد سُددت إليه.. قتله ابن قَمِئة وهو يحسَبه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فذهب يذيع بذلك بين المشركين.

وقد مات فى ذلك اليوم دون رسول الله ﷺ خلق كثير، كلهم يَفديه بنفسه، ويحول بينه وبين العدو حتى يصرع.. روى الواقدى عن سفيان بن عيينة قال: لقد أصيب مع رسول الله يوم أحد نحو من ثلاثين، كلهم يجىء حتى يتقدم بين يديه ثم يقول: "وجهى لوجهك الفداء، ونفسى لنفسك الفداء، وعليك سلام الله غير مُوَدَّع"..!

كان هم قريش أن تتخلص من رسول الله فى هذه المعركة

وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا وتعاقدوا على قتل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعرفهم المشركون بذلك، وهم عبد الله بن شهاب، وعتبة بن أبى وقاص، وعمرو بن قمئة، وأبى ابن خلف. فأما عبد الله بن شهاب فقد شج رسول الله ﷺ فى جبهته، حتى سال الدم على وجهه فأخضل لحيته؛ وأما عتبة

ابن أبى وقاص فقد أصاب شفته السفلى وكسر رَبَاعِيته[1] اليمنى؛ وأما عمرو بن قمئة فقد أصاب وجنته حتى دخلت فيها حَلْقتان من حَلَق المِغْفَر[2]، ثم ضربه بالسيف على عاتقه، فوقع فى حفرة هناك فجُحِشت ركبتاه، فأخذ بيده على بن أبى طالب، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا؛ وقد ظل رسول الله ﷺ يجد ألم هذه الضربة على عاتقه شهرًا. وأما أُبى بن خلف فقد شد على رسول الله وهو يقول: "يا كذاب، أين تفر"؟ فطعنه رسول الله ﷺ بحربة فى عنقه، فمال على فرسه وهو يخور خُوَار الثور، ثم مات فى الطريق وهم عائدون إلى مكة.

ثم عرف المسلمون أن رسول الله ﷺ لا يزال حيًّا، فأحاطوا به حتى كشفوا عنه العدو. وكان أولَ من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك. قال: "عرفت عينيه تَزْهَران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتى: يا معشر المسلمين.. أبشروا هذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم..! فأشار إلىّ رسول الله: أن أنصت".

وفاءت إلى رسول الله فئة من المسلمين فنهضوا به إلى الشعب، فاحتمى به مع من كان يحتمى هناك من أصحابه.

---

(١) الرباعية: السن التى تجاور الناب.

(٢) المغفر: قناع من الحديد يوضع على الوجه.

ونهض صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها؛ فلم يستطع لكثرة ما نَزَف من دمه، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها.

نساء قريش يمثلن بالقتلى

وظن المشركون أنهم قد انتقموا ليوم بدر، وشفَوْا نفوسهم بمقتل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فاكتفوا بذلك مغنمًا، وأخذت المعركة بعد ذلك تهدأ حدتها وتخمد حرارتها، فانحاز المشركون إلى معسكرهم، وشغلوا بدفن قتلاهم. وأخذت نساؤهم يمثلن بالقتلى من المسلمين، فيُجَدِّعْن آذانهم وأنوفهم، ويتخذن منها قلائد وخلاخيل. ومثَّلت هند بنت عتبة بحمزة عم رسول الله أفظع تمثيل، فلم يكفها أن جَدَعت أنفه وأذنيه حتى بَقَرَت بطنه وأخرجت كبده، فجعلت تَقضمها بأسنانها وتأكلها أكل المغيظ المحنَق، فلما لم تستطع أن تُسيغها لَفَظَتها.

ومشى أبو سفيان يتفقد القتلى من المسلمين ويتعرف وجوههم؛ فلما وجد حمزة صريعًا بينهم، جعل يضرب فى شدقه بكعب الرمح ويقول: "ذُق عَقَق[1]"..! فرآه الحُلَيْس سيد الأحابيش، فأنكر عليه أن يفعل ذلك بابن عمه وهو ميت؛

(١) عقق: مبالغة من العقوق وهو مجافاة الأهل وعقوقهم.

فاستحيا أبو سفيان من هذه الزلة، وطلب إليه أن يكتمها عليه ولا يذيعها فى الناس.

أبو سفيان يبحث عن رسول الله

وكان همّ أبى سفيان أن يجد رسول الله ﷺ فى القتلى؛ فلما لم يجده بينهم أخذ الشك يخامره فى أنهم قتلوه، فذهب إلى ناحية الشعب الذى اعتصم به رسول الله وأصحابه، وجعل ينادى: "أفيكم محمد..؟ أفيكم ابن أبى قحافة..؟ أفيكم ابن الخطاب..؟" فنهى رسول الله ﷺ أصحابه أن يجيبوه.. فلما لم يجبه أحد أقبل على أصحابه من المشركين فقال لهم: "أما هؤلاء فقد كُفيتُموهم".. فما ملك عمر نفسه أن قال: "كذبت - والله - يا عدو الله..! قد أبقى الله لك ما يسوءك..!" فقال أبو سفيان - وكأنما أراد أن يعتذر مما فعلت نساء قريش بقتلى المسلمين -: "إنكم ستجدون فى القوم مُثْلَة[1]، لم آمُرْ بها ولم تسؤنى". ثم جعل يرتجز قائلا: "نَعِمَتْ فَعال: إن الحرب سِجال.. اعلُ هُبَل، اعل هبل..!" فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «قولوا له الله أعلى وأجل».. ! قال أبو سفيان: "لنا العزى ولا عزّى لكم..!" فقال رسول الله ﷺ: «قولوا

(١) يعنى ما أحدثته نساء قريش من التمثيل بقتلى المسلمين.

له : الله مولانا ولا مولى لكم.. ! » فقال أبو سفيان : "يوم بيوم بدر" ! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « قولوا له : لا سواء، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار » ! فصلح أبو سفيان : "إن موعدكم بدر للعام القابل". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا له : « هو بيننا وبينكم موعد ».

الرسول يتعرف وجهة القوم بعد المعركة

ثم لوى أبو سفيان عنان فرسه وقفل راجعًا إلى أصحابه، فأراد رسول الله ﷺ أن يعرف وجهة القوم، فبعث على بن أبى طالب وقال له : « اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون.. فإن كانوا قد جَنَبُوا الخيل وامتطَوْا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ». فخرج علىّ فى آثارهم، فرآهم قد جنبوا الخيل وركبوا الإبل ووجَّهوا إلى مكة، فجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لئن أرادوا المدينة لأسيرنّ إليهم فيها، ثم لأناجِزَنّهم ».

فلما انصرف القوم أحاط أصحاب رسول الله ﷺ به يعالجون جراحه؛ فقام أبو عبيدة فنزع الحلقتين بأسنانه من وجه رسول الله ﷺ، فسقطت مع الحلقة الأولى إحدى ثناياه، وسقطت مع

الحلقة الأخرى ثَنِيَّته الثانية؛ فكان أبو عبيدة يعد ذلك أحسن الناس هَتْمًا، وجاءت فاطمة فى نسوة من المدينة؛ فلما رأت رسول الله ﷺ قد دَمِى وجهه جعلت تعانقه وتبكى، وجعلت تغسل الدم عن وجهه ثم تمسحه فلا يَرْقَأ، فأخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى صارت رمادًا، ثم ألصقتها على الجرح فاستمسك الدم.

الرسول يرثى الشهداء

ثم نزل رسول الله ﷺ إلى مكان المعركة لينظر القتلى من أصحابه؛ فلما رأى عمه حمزة صريعًا قد فُعل به ما فعل. حزن عليه حزنًا شديدًا، وبلغ منه الغيظ كل مبلغ، حتى قال: «ما وقفت موقفًا أغْيظَ إلىّ من هذا الموقف».. ! ونظر إلى مصعب بن عمير وهو صريع فى بُرْدِه، فقال: «لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرَقَّ حُلتةً منك، ولا أحسن لِمَّة[1] منك؛ ثم أنت أشعث الرأس فى بردة».. ! ثم نظر إلى القتلى جميعًا فقال: «أنا شهيد على هؤلاء.. إنه ما من جريح يجرح فى الله إلا ويبعثه الله يوم القيامة يَدْمَى جُرحُه؛ اللون لون الدم، والريح ريح المسك».

(١) اللمة: مجتمع شعر الرأس.

وكان حنظلة بن أبى عامر حديث عهد بعُرس؛ فلما سمع النفير خرج مبادرًا إلى القتال قبل أن يغتسل، فقتل رضى الله عنه. فلما نظر إليه رسول الله قال: «إن صاحبكم لتَغسله الملائكة». فسئلت امرأته فى ذلك فقالت: إنه خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة.

وأمر رسول الله ﷺ أن يُدفَن القتلى حيث صُرعوا، وقال: «لُفُّوهم بدمائهم وجراحهم.. وانظروا أكثرهم جمعًا للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر». فكانوا يُدفنون بثيابهم ودمائهم دون أن يُغسلوا؛ وكانوا يوضعون كل اثنين وكل ثلاثة فى القبر الواحد، لما كان عليه الصحابة يومئذ من الإعياء والضعف عن أن يحفروا لكل واحد قبرًا. وكان عدد القتلى نحو سبعين قتيلا، أربعة من المهاجرين وسائرهم من الأنصار. أما قتلى المشركين فكانوا أربعة وعشرين.

الرسول يعزى أهالى الشهداء

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه ركب فرسه وتوجه نحو المدينة، والمسلمون من حوله أكثرهم جرحى، يتحاملون على أنفسهم مما بهم من شدة الجهد، ويتلاومون على ما كان منهم من خلاف لأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويرجون أن

يغفر الله لهم هذه الزلة، ويتجاوز لهم عن هذه السيئة.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة وجد النساء عند بابها يبكين قتلاهن؛ فلما رأينه مقبلا نَسِين ما هن فيه من الحزن، وأسرعن إليه ينظرن إلى سلامته؛ فلما رأينه فى سلامة هانت عليهن المصيبة، وقالت له أم عامر الأشهلية: "كل مصيبة بعدك جَلَل"! وجاءت أم سعد بن معاذ تعدو نحوه وتتأمله، حتى إذا اطمأنت على سلامته قالت: "أما إذ رأيتك سالمًا فقد أشْوَت المصيبة[1]"! فعزاها رسول الله بابنها عمرو بن معاذ، ثم قال لها: «يا أم سعد، أبشرى! وبشرى أهليهم أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعًا»! قالت: "رضينا برسول الله! ومن يبكى عليهم بعد هذا"؟ ثم قالت: "ادعُ يا رسول الله لمن خلَّفوا". قال: «اللهم أذهِبْ حزن قلوبهم، واجْبُر مصيبتهم، وأحسن الخلَف على من خلفوا»!

ثم عزم رسول الله ﷺ على أصحابه من الجرحى أن يركنوا إلى بيوتهم ليداووا جراحهم؛ فتخلف عنه كل مجروح، وباتوا يوقدون النار ويتكمدون بها الجراح. ومضى صلى الله عليه وسلم حتى جاء بيته، فما نزل عن فرسه إلا تحاملا؛ ثم مشى يتحامل على السعدين - سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ - حتى دخل

---

(١) أشوت المصيبة: هانت.

بيته. فلما أذّن بلال لصلاة المغرب، خرج على مثل تلك الحال يتوكأ على السعدين، فصلى ثم عاد إلى بيته.

وبات وجوه الأوس والخزرج على بابه فى المسجد يحرسونه، مخافة أن تَكُر قريش وهم غافلون.

وأذِن رسول الله ﷺ فى البكاء على القتلى، لما فى ذَرْف الدموع من التنفيس عن القلب، والتفريج من لوعة الحزن؛ ولكنه نهى عن نتْف الشعور، وخْمش الوجوه، وشق الجيوب، ونياحة الجاهلية.